﴿ وَأَنْبَتْنَا[1] فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) ﴾ [الحجر]

وأنبت سبحانه من الأرض كُلَّ شىء موزون بدقّة تناسب الجو والبيئة ، ويضم العناصر اللازمة لاستمرار الحياة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ[2] وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) ﴾

فى هذا القول يمتنُّ علينا سبحانه بأنه جعل لنا فى الأرض وسائل للعيش ؛ ولم يكتَفِ بذلك ، بل جعل فيها رزقَ ما نطعمه نحن من الكائنات التى تخدمنا ؛ من نبات وحيوان ، ووقود ، وما يلهمنا إياه لنطور حياتنا من أساليب الزراعة والصناعة ؛ وفوق ذلك أعطانا الذرية التى تَقَرُّ بها العين ، وكل ذلك خاضع لمشيئته وتصرُّفه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾

وقوله الحق :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [الحجر]

أى : أنه لا يوجد جنس من الأجناس إلا وله خزائنُ عند الله

---

(١) المقصود من الإنبات: الإنشاء والإيجاد . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٣٦) . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ﴾ [نوح] .

(٢) المعايش : جمع معيشة ، وهو ما يقتات به ويعيش عليه الإنسان .

سبحانه ، فالشيء الذى قد تعتبره تافهاً له خزائن ؛ وكذلك الشيء النفيس ، وهو سبحانه يُنزِل كل شيء بقدَرٍ ؛ حتى الاكتشافات العلمية يُنزِلها بقدَرٍ .

وحين نحتاج إلى أىِّ شيء مخزون فى أسرار الكون ؛ فنحن نُعمل عقولنا الممنوحة لنا من الله لنكتشف هذا الشيء . والمثل هو الوقود . وكُنا قديماً نستخدم خشب الأشجار والحطب .

وسبحانه هو القائل :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ[1] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾ [الواقعة]

واتسعت احتياجات البشر فاكتشفوا الفحم الذى كان أصله نباتاً مطموراً أو حيواناً مطموراً فى الأرض ؛ ثم اكتُشِف البترول ، وهكذا .

أى : أنه سبحانه لن يُنشيء فيها جديداً ، بل أعدَّ سبحانه كل شيء فى الأرض ، وقدَّر فيها الأقوات من قبل أنْ ينزِل آدم عليه السلام إلى الأرض من جنة التدريب ليعمُرَ الأرض ، ويكون خليفة لله فيها ، هو وذريته كلها إلى أن تقومَ الساعة .

فإذا شكوْنَا من شيء فهذا مَرْجِعه إلى التكاسل وعدم حُسْن استثمار ما خلقه الله لنا وقدَّره من أرزاقنا فى الأرض . ونرى التعاسة فى كوكب الأرض رغم التقدُّم العلمى والتِّقنى ؛ ذلك أننا نستخدم ما كنزه الحق سبحانه ليكون مجال سعادة لنا فى الحروب والتنافر .

---

(١) أوْرى : أخرج النار من الشيء . ورى الزند : خرجت ناره ، وأوراه غيره إذا استخرج ناره . والزند الوارى : الذى تظهر ناره سريعاً . [لسان العرب - مادة : ورى] .

ولو أن ما يُصرف على الحروب ؛ تم توجيهه إلى تنمية المجتمعات المختلفة لَعاشَ الجميع فى وفرة حقيقية . ولكن سوء التنظيم وسوء التوزيع الذى نقوم به نحن البشر هو المُسبِّب الأول لتعاسة الإنسان فى الأرض ؛ ذلك أنه سبحانه قد جعل الأرض كلها للأنام ، فمن يجد ضِيقاً فى موقع ما من الأرض فليتجه إلى موقع آخر .

ولكن العوامل السياسية وغير ذلك من الخلافات بين الناس تجعل فى أماكن فى الأرض ؛ رجالاً بلا عمل ؛ وتجعل فى أماكن أخرى ثروة بلا استثمار ؛ ونتجاهل قوله سبحانه :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ.. (٢١) ﴾ [الحجر]

فلكل شىء فى الأرض خزائن ؛ والخزينة هى المكان الذى تُدَّخر فيه الأشياء النفيسة ، والكون كله مخلوق على هيئة أن الحق سبحانه قدَّر فى الأرض أقْواتاً لكل الكائنات من لَدُن آدم إلى أن تقومَ الساعة .

فإنْ حدث تضييق فى الرزق فاعلموا أن حقاً من حقوق الله قد ضُيِّع ، إما لأنكم أهملتم استصلاحَ الأرض وإحياء مواتها[1] بقدر ما يزيد تعداد السكان فى الأرض ، وإما أنكم قد كنزتُم ما أخذتُم من الأرض ، وضننتُم بِمَا اكتنزتموه على سواكم .

فإنْ رأيتَ فقيراً مُضيَّعاً فاعلم أن هناك غنياً قد ضَنَّ عليه بما

(١) إحياء الموات هو إعداد الأرض الميتة التى لم يسبق تعميرها وتهيئتها وجعلها صالحة للانتفاع بها فى السكنى والزرع ونحوها . ويشترط لاعتبار الأرض مواتاً أن تكون بعيدة عن العمران ، ويسقط حق محتجر الأرض للإحياء فيها إذا مرت ثلاث سنوات دون إعمارها . [فقه السنة ٣/ ٢٠١] بتصرف .

أفـاض الله على الغنى من رزق ، وإنْ رأيت عاجـزاً عن إدراك أسبـاب حيـاته فاعلم أن واحداً آخـر قد ضَنَّ عليه بقُـوته . وإنْ رأيت جاهلاً ؛ فـاعلم أن عالمـاً قـد ضَنَّ عليه بـعلمه . وإنْ رأيت أخْـرق[1] فاعلم أن حكيمـاً قد ضَنَّ عليه بحكمتـه ؛ فكُلّ شىء مخزون فى الحيـاة ؛ حتى تسلم حـركة الحيـاة ؛ سلامـةً تؤدى إلى التسـانُد والتعـاضُد ؛ لا إلى التعانُد والتضارب .

ونعلم أنه سبحـانه قد أعدَّ لنا الكون بكُل ما فـيه قبل أنْ يخلقنا ؛ ولم يُكلِّفنا قـبل البلوغ ؛ ذلك أنه علِم أزلاً أن التكـليف يُحدِّد اخـتيـار الإنسـان لكثـيـر من الأشيـاء التى تـتعلق بـكل ملكات النفس ؛ قُـوتاً ومَشْرباً وملْبـساً ومسكناً وضَبْطاً للأهواء ، كـى لا ننساقَ فى إرضاء الغرائز على حساب القيمَ .

وشـاء سبـحانه الاَّ يكون التكليـف إلا بعد البلوغ ؛ حـتى تستـوفى ملكاتُ النفس القوةَ والاقتدارَ ، ويكون قادراً على إنجاب مثيل له ، ولكى يكون هذا التكليف حُجَّـة على الإنسان ، هذا الذى طَمَر له الحق سـبحانه كل شىء إمَّا فى الأرض ؛ أو كان طمراً فى النوع ، أو فى الجنس .

وكُلُّ شىء فى الكون موزون ، إما أن يكون جِنْساً ، أو نَوْعاً ، أو أفراداً ؛ والميزان الذى توجـد به كل تلك العطاءات ؛ إنما شاء به الحق سبـحانه أن يهبَ الرب للكل ؛ وليـوافق الكثرة ؛ وليعـيش الإنسان فى حـضْن الإيمـان . وهكـذا يكون عطاء الله لنـا عطاءَ ربوبيـة ، وعطاءَ ألوهية ، والذكىّ حقاً هو مَنْ يأخذ العطاءين معاً لتستقيم حياته .

---

(١) الأخرق : الأحمق الجاهل الذى لا يُحسن عمله . [لسان العرب ـ مادة : خرق] .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا[1] (١٠٠) ﴾ [الإسراء]

وذلك ليوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يظنُّ أن ذاتيته هى الأصل ، وأن نفعيته هى الأصل ، وحتى فى قضايا الدين ؛ قد يتبع العبد قوله الحق :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[2] (٩) ﴾ [الحشر]

ومَنْ يفعل ذلك إنما يفعله فى ظاهر الأمر أنه يُؤْثِر الغيرَ على نفسه ؛ ولكن الواقع الحقيقى أنه يطمع فيما أعدَّه الله له من حُسْن جزاء فى الدنيا وفى الآخرة .

إذن : فأصْل العملية الدينية أيضاً هو الذات ؛ ولذلك نجد مَنْ يقول : أنا أُحب الإيمان ؛ لأن فيه الخيرية ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) ﴾ [العاديات]

وفيه أنانية ذكية تتيح لصاحبها أخْذ الثواب على كل عمل يقوم به لغيره ، وهذا لون من الأنانية الذكية النافعة ؛ لأنها أنانية باقية ، ولها عائد إيمانى .

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيق عليهم فى النفقة . والقتر : ضيق العيش . والإقتار : التضييق على الإنسان فى الرزق . [لسان العرب - مادة : قتر] .

(٢) خصّ يخص خصاصة : افتقر واحتاج . والخصاصة : الفقر والاحتياج . [القاموس القويم ١/١٩٥] .

ونعلم أن الحق سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم أثرياء ؛ ولم يجعل يداً عليا ويداً سفلى ، لكنه سبحانه لم يشأ ذلك ؛ ليجعل الإنسان ابْنَ أغيار ؛ ويعدل فيه بميزان الإيمان ، وليدُكَّ غرور الذات على الذات ، وليتعلم الإنسان أن غروره على ربِّه لن ينال من الله شيئاً ، ولن يأتى للإنسان بأى شىء .

وكل مظاهر القوة فى الإنسان ليست من عند الإنسان ، وليست ذاتية فيه ، بل هى موهوبة له من الله ؛ وهكذا شاء الحق سبحانه أنْ يُهذِّب الناس ليُحسنوا التعامل مع بعضهم البعض .

ولذلك أوضح سبحانه أن عنده خزائنَ كل شىء ، ولو شاء لألقى ما فيها عليهم مرة واحدة ؛ ولكنه لم يُرد ذلك ليؤكد للإنسان أنه ابْنُ أغيارٍ ؛ وليلفتَهم إلى مُعْطى كل النعم .

كما أن رتابة النعمة قد تُنسى الإنسانَ حلاوةَ الاستمتاع بها ، وعلى سبيل المثال أنت لا تجد إنساناً يتذكر عَيْنه إلا إذا آلمتْه ؛ وبذلك يتذكر نعمة البصر ، بل وقد يكون فَقْد النعمة هو المُلفت للنعمة ، وذلك لكى لا ينسى أحد أنه سبحانه هو المُنعِم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ[1] فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) لواقح : حوامل . لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع . قال الأزهرى : وجعل الريح لاقحاً لأنها تحمل السحاب ، أى : تُقله وتصرفه ثم تمر به فتستدره ، أى تنزله . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٢٩] .

والإرسال هو الدَّفْع للشيء من حَيِّز إلى حَيِّز آخر ، وحين يقول سبحانه إنه أرسل الرياح ؛ نجد أنها مُرْسلَة من كُلّ مكان إلى كُلّ مكان ؛ فهي مُرْسَلة من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا .

وهكذا يكون كل مكان ؛ هو موقع لإرسال الرياح ؛ وكل مكان هو موقع لاستقبالها ؛ ولذلك نجد الرياح وهي تسير في دَوْرة مستمرة ؛ ولو سكنتْ لمَا تحرَّك الهواء ، ولأُصيبتْ البشرية بالكثير من الأمراض ؛ ذلك أن الرياح تُجدِّد الهواء ، وتُنظِّف الأمكنة من الرُّكود الذي يُمكِن أن تصيرَ إليه .

ونعلم أن القرآن حين يتكلم عن الرياح بصيغة الجمع فهو حديث عن خير ، والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ.. (٥٧)﴾ [الأعراف]

أما إذا أُفرد وجاء بكلمة « ريح » فهي للعذاب ، مثل قوله :

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[1] عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة]

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (٢٢)﴾ [الحجر]

ولواقح جمع لاقحة ، وتُطلَق في اللغة مرَّة على الناقة التي في بطنها جنين ؛ ومرة تُطلَق على اللاقح الذي يلقح الغير ليصير فيه جنين ؛ لأن الحق سبحانه شاء أن يتكاثر كل ما في الكون ؛ وجعل

---

(١) ريح صرّ وصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

من كُلٍّ زوجين اثنين ؛ إما يتكاثر أو تتولد منه الطاقة ؛ كالسالب والموجب فى الكهرباء .

وهو القائل سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (٣٦) ﴾ [يس]

ثم عَدَّد لنا فقال :

﴿ مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

وهناك أشياء لا يُدركها الإنسان مثل شجرة الجُمَّيز ؛ التى لا يعلم الشخص الذى لم يدرس علم النبات كيف تتكاثر لتنبت وتُثمر ، ويعلم العالم أن هناك شجرةَ جُميز تلعب دور الأنثى ، وشجرةً أخرى تلعب دور الذَّكَر .

وكذلك شجرة التوت ؛ وهناك شجر لا تُعرَف فيه الأنثى من الذَّكر ؛ لأنه مكمور توجد به الأُنثى والذَّكَر ، وقد لا تعرف أنت ذلك ؛ لأن الحق سبحانه جعل اللُّقاحَ خفيفةً للغاية ؛ لتحملَها الريحُ من مكان إلى مكان .

ونحن لم نَرَ كيف يتم لقاح شجرة الزيتون ؛ أو شجرة المانجو ، أو شجرة الجوافة ، وذلك لنأخذ من ذلك عبرةً على دِقّة صَنْعته سبحانه .

والمثَل الذى أضربه دائماً هو المياه التى تسقط على جبلٍ ما ؛ وبعد أيام قليلة تجد الجبل وقد امتلأ بالحشائش الخضراء ؛ ومعنى هذا أن الجبل كانت توجد به بذور تلك الحشائش التى انتظرتْ الماء لتُنبت .

وتعرّف العلماء على أن الذكورة بعد أن تنضج فى النبات فهى تنكشف وتنتظر الرياح والجو المناسب والبيئة المناسبة لتنقلها من مكان إلى مكان .

ولهذا نجد بعضاً من الجبال وهى خضراء بعد هبوب الرياح وسقوط المطر ؛ ذلك أن حبوب اللقاح انتقلت بالرياح ، وجاء المطر لتجد النباتات فرصةً للنمو .

وقد تجد جبلاً من الجبال نصفه أخضر ونصفه جَدْب ؛ لأن الرياحَ نقلتْ للنصف الأخضر حبوبَ اللقاح ، ولم تنقل الحبوب للنصف الثانى من الجبل ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه قد جعل للرياح دورةً تنتقل بها من مكان لمكان ، وتدور فيها بكل الأماكن .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ..(٢٢) ﴾ [الحجر]

وقد تبيّن لنا أن المياه نفسها تنشأ من عملية تلقيح ؛ وبه ذكورة وأنوثة .

وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ[1] (٢٢) ﴾ [الحجر]

أى : أنكم لن تخزنوا المياه لأنكم غير مأمونين عليه ، وإذا كان الله قد هدانا إلى أن نخزنَ المياه ، فذلك من عطاء الله ؛ فلا يقولنّ أحد : لقد بنينا السدود ؛ بل قُلْ : هدانا الله لنبنيَها ؛ بعد أن يسقطَ المطر ؛ ذلك أن المطر لو لم يسقط لَمَا استطعنا تخزينَ المياه .

(١) أى : ليست خزائنه عندكم ، فنحن الخازنون لهذا الماء ، ننزله إذا شئنا ، ونمسكه إذا شئنا . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٤٢] .